جيل وجيل

الى أين يسير الانسان !

للأستاذ محمود البشبيشى

— ٥ —

التحليل الروحى قيد الشخصية — التحليل العملى مطلق للمجموع — الميول والعواطف العامة تسم التحليل الروحى — والتأمل الخاص يخصصه — الحيوان والتجربة ! — التحليل الروحى والعملى والفكر الأدبى

... نصل نقاشنا اليوم بصورة من اتجاهات ولدنا الأديب « حسين » الفلسفية ، فلا سبيل إلى إرضاء هذه الفورة الفكرية إلا بتشريح خواطرها المتدفقة ، تشريحاً لا تنزل صوره إلا بمنزلة اليقظات الحسية ، والأقباس الفكرية اللماحة

وحديث اليوم نسيج وحده ، وجدت فى مسايرته نشوة الفكر الحر إذا انكشفت أمامه مخبآت الفكر الإنسانية ... ورأيت من الخير أن أتابعه إلى أقصى حدود المتابعة ، وأتنقل معه من شاطئ فكر إلى شاطئ فكر ، لأسبر غور اليقظة الحسية والفكرية فى عقل متوثب من عقول الجيل الجديد ، ولأرى كيف يمكن عقد صلة بين حياتنا الفكرية وبيئتنا —

ولقد رأيت الكثير وعلمت الكثير ودفنى هذا العلم والتأمل إلى مواصلة النقاش ، ففيه نشوة روحية ولذة فكرية ونوع من التعبير جديد عامر بنفائس المعانى وكرائم الاتجاهات ، لا يمله القارئ الراغب فى التسلية ، وتجد فيه العقول الراجحة الوزينة أطايب وأطايب

— لا شك يا بنى أن الإنسان بما ركب فيه من أحاسيس ومشاعر ، وما اختص به من عقل متأمل له القدرة على تفهم ما يدور حوله وما يضطرب فى أيامه من تغيرات معنوية ومادية ... ولا شك أن قدرته على تفهم دقائق الأسرار تختلف كل الاختلاف وتتفاوت كل التفاوت تبعاً لقدرة الفرد على التغلغل فى ظلمات الفكر ، والتأمل فى بدايتها ونهايتها ، وإدراك الصلة بين هذه البداية وتلك النهاية ... ثم تبعاً للقدرة على التحليل والوصول إلى النتائج

وكما اختلف الإنسان فى جوهر العقل كان اختلافه فى كل ما يصدر عن العقل وكل ما يترتب على نتائجه

— جميل هذا ، ولكنى أعتقد أن مظهر التحليل أهم مظاهر الفكر التى يقع بينها التفاوت ، بل إنى لأعتقد كل الاعتقاد أن للتحليل الخطر الأكبر فى كل ما تقوم عليه الحياة الفكرية والعملية ، يظهر أثره فى الشروع فى العمل وفى حالة القيام به ، ويبدو واضحاً فيما تنكشف عنه النتيجة ...

ففى استطاعة كل إنسان أن يشعر بوجود ما يثير التفكير من موضوعات معنوية أو مادية ، خاصة أو عامة ، طبيعية أو غير طبيعية ، ذلك لأن جوهر العقل للدرك مشترك فى المجموع .

أما هكسلى فإن دفاعه عن آراء لورنس فى حرية الأخلاق قد اتخذ شكلا فلسفياً ، فهو يحاول (قصداً) أن يظهر أن هذه الفوضى الأخلاقية هى النتيجة العقلية لتحليل النفس الحقيقية .

لقد تعرضنا فى هذه الإلمامة النقدية للقيمة الأدبية لكتابات أولئك المؤلفين ؛ وهذه القيمة نفسها تعرض أخلاقهم إلى خطر عظيم ، فقد وقع الكتاب الثلاثة فى أزمات نفسية خاصة وليست شائعة بين عامة الناس . وعلى هذا فمن الخطأ أن نعتقد أن هؤلاء الكتاب على أى حال أو فى أية صورة للمظهر الأخلاق الحقيق للعقل الإنجليزى

وأخيراً أظهر الكاتب أنه بالرغم من تأثير أولئك الثائرين فإن الأدب الإنجليزى المعاصر لديه مؤلفون عديدون يدينون بالآراء القديمة ؛ فهم محافظون على تقاليدهم الموروثة ؛ أمثال : ميروث وجولزورث وبنت وكونراد وجيروم وتشسترتن ؛ حتى هاردى يمكن أن يعتبر أنه أميل ، أو أكثر إخلاصاً وأمانة إلى الأخلاق والتقاليد القديمة ، التى هى من الأسباب الجوهرية فى عظمة الشعب الإنجليزى .

نظمى خليل

ولكن التفاوت قد يقع ، بل لا بد أن يقع فيما وراء مرحلة الإدراك من تصرفات فكرية ، كشعور الإنسان بإحساس خاص نحو موضوع اعترضه ، أو رغبته القائمة على هذا الشعور في سلوك مسلك خاص نحو هذا الموضوع ؛ وكما وقع الاختلاف في مرحلة الإحساس الخاص والسلوك الخاص يحدث في القدرة على التعليل لأن هذه المرحلة تصل معاني الإحساس بمعاني ووسائل السلوك

— حسن هذا يا بني ، وجميل أن تتأمل « التعليل » تأملاً أوسع نطاقاً ، وتحاول أن تستكشف أسراره ... عرفنا سر اختلافه فما هي صوره ؟ وإلى أي مدى تتأثر الحياة بتلك الصور ؟ وأي مظهر من مظاهره أجدى على المجتمع ؟

التعليل نوعان : تعليل روحي وتعليل عملي . أما الروحي ، فهو وليد الفكر ، يسير على ضوء أقباسه وتكون نتائجه صوراً فكرية أساسها التصور والتخيل ؛ والعملي وهو في حقيقته صورة لتعليل روحي انطلقت من قيود التخيل والتصور ووجدت الوسيلة القادرة لتتجسد بالعمل أو بالقياس ، ووسيلة الاتقان في العمل والصدق في القياس هي التجربة

— وعندي يا والدي أن التعليل الروحي قيدٌ من قيود الشخصية ! لأنه مختلف متفاوت ، ومن اختلافه وتفاوته تتميز الشخصيات

فهذا رجل قائم الروح ، تخرج نظراته إلى الأشياء من ألوانها القاتمة ، فما من فكرة له وعمل إلا وفيه صورة من صورها ، وإنه لسالك هذا السبيل حتى يصبح سمة يعرف بها ولون تتكون منه شخصيته ، وباختلاف ألوان الروح تختلف الشخصية

ولما كان التعليل صورة من صور الروح والعقل ، ومظهراً من مظاهر الشخصية ، كان طبيعياً أنه إذا اشتد وتمت له الغلبة على الشخصية نفسها ، وعلى سائر مكوناتها ، أو تخطى حدود التوازن بينه وبينها ... انتقل بالإنسان من قيد الشخصية الفردية إلى أفق الإنسانية العامة ... فإذا به قد صب في قوالب من صور المجتمع ، واستطاع أن يغالب نوازع النفس الفردية بعد أن كان الحكم والغاية فيه للتصور والتخيل والذوق الخاص ، لا للميول الاجتماعية والخير العام

— رأيت يا بني أن التعليل الروحي من مكونات الشخصية ، وإنه في أول أمره يكون من سمات الفردية ، فإذا تمت له الغلبة على سائر مكونات الشخصية ، انتقل بها من نطاق الفرد ومنافعه الخاصة إلى أفق المجموع ومنافعه العامة ، هذا حق ولكن يحسن أن نجلي عنه قليلاً فنقول : إن التعليل الروحي إذا غلب عليه التأمل الخاص أصبح صاحبه محباً للأثرة ؛ أما إذا سمه شعاع من أقباس الميول العامة والعواطف ، كان طريقاً ممهداً إلى مسايرة منافع المجتمع الإنساني وملابسة تقلباته وتطوراته ، أو كان سبيلاً إلى معارضة تلك المنافع ومحاربتها ... !

فهذا رجل نبيل الروح تظهر روحه النبيلة في مظاهر تعليله ، ويقف تأثيرها في أول الأمر أو في حالة التوازن بينها وبين شخصيته عند منفعته الخاصة . إما إذا قهر هذا التعليل الروحي النبيل سائر مكونات شخصيته جعل منه صاحب ميول اجتماعية إنسانية سامية ؛ فهو بما فُطر عليه من نبل يعمل على إسعاد المجتمع وتقويم أوده ...

وذاك رجل غُلّفت روحه بالأثرة والطمع ، وطغى ذلك على مذاهب تعليله ؛ فهو يتخبط في ظلمات أثرة محدودة بأطماع مقيدة في أول أمره ؛ ثم إذا تمت الغلبة لتعليله الروحي وقُهرت شخصيته ، انطلق انطلاق الطائر الحبيس تفتحت أمامه آفاق السماء ، فراح ينتهب من هنا وهناك ، ويحلق هنا وهناك ، وكان في جميع أموره مقدماً منفعته ، معارضاً الخير العام

— وأرى يا والدي أن التعليل العملي سبيل من سبل إسعاد المجتمع . فما كانت الآلات المخترعة ووسائل العلاج المختلفة إلا وليدة تعليل عملي ، تأمل في أحوال الكون ، وقارن بين ما فات وما هو آت ، وربط التجاريب القديمة بالنظرات الحديثة ، ووقف عند كل ظاهرة من ظواهر الحياة وقفة الفكر العملي الذي لا يقنع بزاد التخيل ، ولا يرضى بمعتاد التصور !

ولقد كان الإنسان فى فجر أيامه تيهان هائماً ، وكان موقفه من مشكلات الأمور موقف العجز المطبق أو القدرة المقيدة تنيم الدهشة فى رأسه إذا طوقته الحادثات ، وتضطرب الحيرة فى فكره إذا بدهته الملمات !

كل أعماله تنم عن نقص فى التدبير ، وكل تصرفاته تدل على قصور فى التفكير ، وما من طريق سلكه إلا هتك عن جهل بغالبية الأمور

ولقد ظلت أموره إلى عهد غير بعيد مشدودة إلى ماضيه بقيود من المنافع الخاصة والنظرات الروحية ! أما اليوم فقد تحول تحولاً كبيراً ، وانقلب انقلاباً خطيراً ...

أفلم يساير الزمن فى تقلباته ، ويلابس التقدم العقلى فى تصرفاته ؟ أو لم يناوص ويحاول حتى أدرك أسراراً لم يكن ليستشفها إلا الفطن الذى تحفزه فكرة وعقيدة ؟ !

ولقد ملك اليوم ناصية فكرة وعقيدة مهما يكن مكانها من الخير أو الشر فهى من علائم اليقظات الحسية ! وجماع القول فى تدرج الإنسان ، ومسايرته للزمن ، وملابسته للتقدم العقلى ، إنه كان روحى التعليل فأصبح عملى التعليل ، وانتقل من لا نهاية التخيل والتصور إلى حدود التجربة والعمل

وكان فى انتقاله هذا إدراك لما لا يناله غوص التخيل وتحقيق لما لا يسبر غوره تغلغل التصور ، ولم يعد الإنسان ذلك المكدود المجهد اللاغب المدلج الحائر

ولكن هذا التطور جلب شراً خطيراً كما حقق خيراً كثيراً

وأكبر الظن أن الإنسان سيظل مندفعاً فى سبيل التعليل العملى وحده والتجربة خاصة ، حتى يصل إلى غاية تنقلب فيها الأمور إلى أضدادها ! وما ذلك ببعيد . وهل كانت هذه الحرب الضروس إلا صورة لفساد المذهب التجريبى العملى التعليل ؟

تلك صور الإنسان ، فما صور الحيوان ؟ عندى أن الحيوان عملى التعليل يسير على ضوء التجربة وينهج نهج الخبرة السابقة ، فكل أعماله غير الغريزية لا تكمل صورها إلا بالتكرار والتجربة ولذلك الاعتقاد عندى علل وأسباب

فهو محروم من التعليل الروحى الكامل المعانى ، لحرمانه من صور العقل الكامل وهذا أمر لا يحتمل الجدل ؛ ثم هو عاجز كل العجز عن ملاءمة نفسه بالبيئة التى تحيط به ، والقدرة على الملاءمة من قواعد الحياة الثابتة ، التى تقوم على ضوء أقباس العقل الكامل ، وإشعاع التعليل الروحى !

ثم إنى لأتلمس هذا القصور عن بلوغ مواطن التعليل الروحى عند الحيوان ، حتى فيما يرتكز على غرائزه الثابتة ؛ فهذا حيوان يأكل العشب الأخضر ، تراه يلتهم ما أمامه بغير تأمل ، فهو لا يميز بين الضار وغير الضار ، لحرمانه من التعليل الروحى ؛ ولكنه بالتكرار والتجربة ، يستطيع أن يدرك أن هذا النوع الذى أصابه منه ضرر جدير أن يبتعد عنه ، وهو حتى فى هذه الحال بطىء الإدراك ، بطىء الفهم لوسائل التكرار والتجربة ، فلو غيرت ظروف البيئة الأولى لوقع فيما وقع فيه أولاً !

أما أثر التعليل الروحى فى الأدب فيبدو واضحاً جلياً فى خطرات النفوس الشاعرة ، ونظرات القلوب الفنانة الساحرة ، وإنه ليكون أكثر وضوحاً فى نفثات الشعراء الغزليين ، ونغمات الكتاب الوجدانيين ، وفى كل أثر من آثار الفكر السابحة فى سماء من الخيال الجنح الذى لا يعرف القيود ، ولا يعترف بالحدود ! ومثل هذا التعليل لا يقوم إلا على التصور والتخيل ، فهو من شواهد اليقظة الروحية ، ولكن أثره لا يمتد إلى آفاق التعليل العملى ، القائم على التجربة والقياس ، وإن كان أصحابه من الشعراء والكتاب يحلقون فى سماء الخلود الفكرى . فغاية التعليل الروحى تغلب عليها الشخصية وتكسوها الفردية — فالشاعر الوجدانى إنما يشرح خواطر قد انبعثت من قلبه فى غمرات من الآلام الخاصة ، واضطرابه فى طوارق من الأوجاع والأسقام ، فأثاره مقيدة بقوة تأثير ما يضطرب فى حياته

والشعراء والكتاب الذين ينهجون نهجاً وسطاً بين الروحى والعملى هم بناة صروح الحياة ، فما كانت الإنسانية فى حاجة إلا للثبت الذى يستطيع المجانسة بين قوة التعليل الروحى وانطلاقه

وقوة التحليل العملي وقدرته، وخير المصلحين من جمع بين فلسفة الفكر وفلسفة العمل والتجربة

— رائع هذا يا ولدي ولكني أميل إلى جعل التحليل الروحي شديد الصلة بالشعر وسائر أنواع الفنون كالرسم والنحت والموسيقى، فما سمعت مرة قطعة موسيقية روحية إلا وأحسست بأنغام سماوية تكاد ترتفع بي من عالم الأرض إلى عالم السماء، وتطهرني من معاني التراب الحقيرة، وتكسوني معاني الروح التي لا تعرف الحدود...

ويا سحر الشعر الروحي الوجداني ... يا سحره!

استمع إلى المعاني كيف تنطق وكيف تتراقص من سحر الفن ونور الروح وشفافية الوجدان: تأمل الألوان النفسية الساحرة تسطع من أزاهير قول الشريف الرضي:

أينعت بيننا المودة حتى ... جلتنا والزهر بالأوراق
نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد ... جميعاً في الحب ضم النطاق
في جبين الزمان منك ومني ... غمرة كوكبية الائتلاق!

وتأمل قول القائل وقد فاض به الوجد:

أيامنا جدول والحب زورقنا ... هيهات يحفل بالأمواج ترتطم!
لا يدرك القلب ماضينا وحاضرنا ... وفي نعيم الهوى أيامنا عدم
نعيش في عالم ألوانه حلم ... في شارد من خيال الفن ترتسم
قد كان صفو الهوى دنيا منمقة ... وكان في بهجتينا الحب يبتسم
ولي فيا لوعة ألقت بعاصفة ... على فؤاد ترامت حوله الظلم!

وانظر قول الشاعر:

حدثتني الرياض عن لفتاتك ... وحكت لي النجوم عن لحاتك
وطيور الغدير بحت من الشدو (م) بلحن الجمال من صدحاتك
وسمعت الأمواج تهمس للشط (م) حديث المجنون عن قسماتك
وضمير الجمال جن من الوجد (م) وذاب الهوى على زهراتك
إذ كريني يعد ضميري النور (م) ويحي الفؤاد في ذكرياتك!

ويا سحر قول الشاعر محمد عبد الخالق الجبار يصف الشباب:

أنغامه الأيام وقعها الهوى ... والصمت من أصدائها تغريد!
ملك على عرش المعاني جالس ... من حوله الساريات عبيد!
إطراقة التاريخ حول جبينه ... تكبيرة يحثو لها داود!!

محمود البشبيشي

النجوم تقرر مصير الحرب ...!

وتم في يدنا تقويم قرى أخرجه السيد أمين الحسيني الفلكي في بدء العام الهجري الحاضر، وقد وردت به نبوءات عن الحرب، ويلاحظ القارىء أن كثيراً من هذه التنبؤات قد صح

قال عن ألمانيا: أنه أمد حربها مع الديمقراطية سيطول وستزداد المعارك شدة، ولكن الأفلاك تقول إن قوتها بدأت في الانحطاط وأن هتلر لن يتمكن من تحقيق أمانيه في حكم العالم وأنه سيسقط في مستقبل الأيام هو وشيعه، وإن بدا أنه سيظفر. فهناك شراك خطة ستكون السبب في سقوطه وستحدث ثورات في البلاد المحتلة. أما هتلر فسيتقلب عليه أعضاء حزب النازي ويخونونه. وسيحاول في الصيف أن يغزو الجزر البريطانية ولكنه سيفشل لأن خطوط مواصلاته ستقطع من البحر ولن يجد سبيلا للعودة وسيثور عليه أعداؤه من خلفه حتى يسقط وسيقتل في حادثة وبقتله تخضع ألمانيا وتنهزم

وقال عن إيطاليا: أن زعيمها سيفقد أمبراطوريته الافريقية باستيلاء جيوش الحلفاء عليها وسيطلب مساعدة هتلر وقد يمده ببعض المساعدة ولكنها لن تؤدي إلى إنقاذ أمبراطوريته، وستضعف إيطاليا نفسها ويغرق أسطولها في معركة بحرية عظمى في البحر الأبيض بعيداً عن السواحل وينتج عنها انهيار إيطاليا التام، وسيرسل هتلر إلى إيطاليا جنوداً ومهمات حربية ويسيطر على إيطاليا، ولكن لا يمر زمن طويل حتى تطرد ألمانيا من إيطاليا

وقال عن بريطانيا العظمى: أنها ستقضي على القوات الايطالية في أفريقية وتحتل المستعمرات الايطالية كما تدل الأحوال الفلكية على أن القوات البريطانية ستحرز انتصارات أخرى في الشرق الأوسط في هذه السنة. وسيكون هناك انتصار بحري عظيم في البحر الأبيض. أما في برقة فان القوات الألمانية ستقع في شرك نصب لها بمهارة وستهزم شر هزيمة في الصحراء. أما في ألمانيا نفسها بعد فشل الغزو فسيحطم سلاح الطيران الملكي البريطاني المصانع الألمانية ويشل حركة الانتاج الحربي ويقطع خطوط المواصلات

وقال عن الولايات المتحدة: أنها ستدخل الحرب ضد ألمانيا سنة ١٩٤٢ وسيزداد العمل فيها هذا العام ويخصص جانب عظيم من إنتاجها الحربي والغذائي للدفاع عن الحرية الانسانية وستمد الدول الديمقراطية بالمال مساعدة لها في نضالها

وقال عن تركيا: أنها ستطمئن في هذه السنة لأن خوفها من روسيا سيزول وسيحاول هتلر أن يفسد التفاهم بين تركيا وبريطانيا، وسيحاول أن يرغمها على الانضمام إلى المحور ولكنه سيفشل.

فما رأي القارىء في مقدرة النجوم على التنبؤ؟ وهل يكون ما قررته النجوم هو فصلا لمصير الحرب؟